المبحث الثاني:

النبى محمد ﷺ المثل الأعلى فى الأخلاق:

المطلب الأول:

الأسلوب الأفضل فى الجدال

{وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}(١)

{وَقُل لّعِبَادِى} وقل للمؤمنين:**{يَقُولُواْ}** للمشركين الكلمة**{التى هِىَ أَحْسَنُ}** وألين ولا يخاشنوهم، كقوله: وجادلهم بالتي هي أحسن وفسر التي هي أحسن بقوله:**{رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أوْ إِن يَشَأْ يُعَذّبْكُمْ}** يعني يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر وقوله:**{إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ}** اعتراض، يعني يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشادّة والمشاقة**{وَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ وَكِيلاً}** أي رباً موكولاً إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمكاشفة، وذلك قبل نزول آية السيف وقيل: نزلت في عمر رضي الله عنه: شتمه رجل فأمره الله بالعفو وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت وقيل: الكلمة التي هي أحسن: أن يقولوا يهديكم الله، يرحمكم الله وقرأ طلحة: «ينزغ» بالكسر وهما لغتان، نحو يعرشون ويعرشون

هو ردّ على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن يكون العراة الجوّع أصحابه، كصهيب وبلال وخباب وغيرهم، دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم، يعني: وربك أعلم بمن في السموات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستأهل كل واحد منهم، وقوله:**{وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ}** إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ وقوله:**{وَءاتَيْنَا دَاوُودُ زَبُوراً}** دلالة على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم؛ لأنّ ذلك مكتوب في زبور داود قال الله

(١) الإسراء: ٥٣ - ٥٥.

تعالى:{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصالحون}[1] وهم محمد وأمته فإن قلت: هلا عرّف الزبور كما عرّف في قوله:{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور} قلت: يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس، والفضل وفضل، وأن يريد: وآتينا داود بعض الزُبر وهي الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمى ذلك زبوراً، لأنه بعض الزبور كما سمى بعض القرآن قرآناً [2]

{وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن} على وجه الإطلاق وفي كل مجال فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه: بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيئ يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، تندّي جفافها، وتجمعها على الود الكريم

{إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا}

يتلمس سقطات فمه وعثرات لسانه، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق، وتحفظ حرم الأخوة آمناً من نزغاته ونفثاته

قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المؤمنين، أن يقولوا عند محاورتهم لغيرهم، الكلمة التى هى أحسن، والعبارة التى هى أرق وألطف

وذلك لأن الكلمة الطيبة، تزيد فى المودة التى بين المؤمنين، وتكسر حدة العداوة التى بينهم وبين أعدائهم

قال - تعالى:{وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} قال الآلوسى: ومقول فعل الأمر محذوف، أى: قل لهم قولوا التى هى أحسن يقولوا ذلك فجزم يقولوا لأنه جواب الأمر وإلى هذا ذهب الأخفش

وقال الزجاج: إن قوله:{يقولوا} هو المقول، وجزمه بلام الأمر محذوفة، أى: قل لهم ليقولوا

وقوله - سبحانه:{إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ} تعليل للأمر السابق

أى: إن الشيطان يتربص بكم، ويتلمس السقطات التى تقع من أفواهكم، والعثرات

(١) الأنبياء: ١٠٥.
(٢) الزمخشري: ٢٨٧.

التى تنطق بها ألسنتكم، لكى يشيع الشر بينكم، ويبذر بذور الشر والبغضاء فى صفوفكم، ويهيج أعداءكم عليكم

وينزغ بمعنى يفسد يقال: نزغه - كنفعه - ينزغه، إذا طعن فيه واغتابه، وقوله:**{إِنَّ الشيطان كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً}** تعليل لحرص الشيطان على الإفساد بينهم

أى إن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس، لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم ولقد حذرنا الله - سبحانه - من الشيطان وكيده فى كثير من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله - تعالى:**{إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير}**

وقوله - تعالى:**{يابني ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الجنة يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}**

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: يأمر الله - تبارك وتعالى - عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ فى يده

أى: فربما أصابه بها

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى أحدكم، لعل الشيطان أن ينزغ فى يده، فيقع فى حفرة من النار»**

* * * * *

المطلب الثاني:
صفات المجادلين بالباطل

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}(١)

{ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً}

ويعبر السياق عن الإنسان في هذا المقام بانه**{شَيْءٍ}** وأنه أكثر شيء جدلا ذلك كي يطامن الإنسان من كبريائه، ويقلل من غروره، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة وأنه أكثر هذه الخلائق جدلاً بعد ما صرف الله في هذا القرآن من كل مثل

ثم يعرض الشبهة التي تعلق بها من لم يؤمنوا وهم كثرة الناس على مدار الزمان والرسالات:

{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ قُبُلاً}

فلقد جاءهم من الهدى ما يكفي للاهتداء ولكنهم كانوا يطلبون أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم من هلاك استبعاداً لوقوعه واستهزاء أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أنه سيقع بهم وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون!

وليس هذا أو ذاك من شأن الرسل فأخذ المكذبين بالهلاك كما جرت سنة الله في الأولين بعد مجيء الخوارق وتكذيبهم بها أو إرسال العذاب كله من أمر الله أما الرسل فهم مبشرون ومنذرون:

{وَمَا نُرْسِلُ المُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً}

(١) الكهف: ٥٦ ـ ٥٩.

والحق واضح ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه وهم حين يبطلون الخوارق، ويستعجلون بالعذاب لا يبتغون اقتناعاً، إنما هم يستهزؤون بالآيات والنذر ويسخرون

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً}

فهؤلاء الذين يستهزؤون بآيات الله ونذره لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن، ولا أن ينتفعوا به

لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه، وجعل في آذانهم كالصمم فلا يستمعون إليه وقدر عليهم الضلال بسبب استهزائهم وإعراضهم فلن يهتدوا إذن ابداً فللهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقي

{وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ}

ولكن الله يمهلهم رحمة بهم، ويؤخر عنهم الهلاك الذي يستعجلون به، ولكنه لن يهملهم:

{بِل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً}

موعد في الدنيا يحل بهم فيه شيء من العذاب وموعد في الآخرة يوفون فيه الحساب

ولقد ظلموا فكانوا مستحقين للعذاب أو الهلاك كالقرى قبلهم لولا أن الله قدر إمهالهم إلى موعدهم، لحكمة اقتضتها إرادته فيهم، فلم يأخذهم أخذ القرى؛ بل جعل لهم موعداً آخر لا يخلفونه:

{وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً}

فلا يغرنهم إمهال الله لهم، فإن موعدهم بعد ذلك آت وسنة الله لا تتخلف والله لا يخلف الميعاد

ويجادل من المجادلة بمعنى المخاصمة والمنازعة ومفعول محذوف

والباطل: هو الشيء الزائل المضمحل الذى هو ضد الحق والعدل والحق هو الشيء الثابت القويم الذى تؤيده شريعة الله - عز وجل

والدحض: الطين الذى لا تستقر عليه الأقدام فمعنى يدحضوا: يزيلوا ويبطلوا تقول

العرب: دحضت رجل فلان، إذا زلت وزلقت ومنه قولـه - تعالى:**{حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ}** والمعنى: ويجادل الذين كفروا رسلهم بالجدال الباطل، ليزيلوا به الحق الذى جاء به هؤلاء الرسل ويدحضوه ويبطلوه، والله - تعالى - متم نوره ولو كره الكافرون، فإن الباطل مهما طال فإن مصيره إلى الاضمحلال والزوال

وقولـه - تعالى:**{واتخذوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُواْ هُزُواً}** معطوف على ما قبله لبيان رذيلة أخرى من رذائل هؤلاء الكافرين

والمراد بآيات الله: تلك المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها رسله سواء أكانت قولاً أم فعلاً، ويدخل فيها القرآن دخولاً أوليا

أى: أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بجدال رسلهم بالباطل، بل أضافوا إلى ذلك أنهم اتخذوا الآيات التى جاء بها الرسل كدليل على صدقهم، واتخذوا ما أنذروهم به من قوارع إذا ما استمروا على كفرهم اتخذوا كل ذلك**{هُزُواً}** أى: اتخذوها محل سخريتهم ولعبهم ولهوهم واستخفافهم، كما قال - سبحانه:**{وَقَالَ الرسول يارب إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً}** ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المعرضين عن التذكير وعن آيات الله فقال:**{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}**

والاستفهام هنا للنفى والإنكار والمراد بالآيات: آيات القرآن الكريم لقولـه - تعالى - بعد ذلك:**{أَن يَفْقَهُوهُ}**

والمراد بالنسيان: الترك والإهمال وعدم التفكر والتدبر فى العواقب

أى: ولا أحد أشد ظلماً وبغياً من إنسان ذكره مذكر ووعظه بآيات الله التى أنزلها على رسوله ﷺ فأعرض عنها دون أن يقبلها أو يتأملها بل نبذها وراء ظهره، ونسى ما قدمت يداه من السيئات والمعاصى، نسيان ترك وإهمال واستخفاف

ثم بين - سبحانه - علة هذا الإعراض والنسيان فقال:**{إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً}**

والأكنة: جمع كنان بمعنى غطاء والوقر الثقل والصمم يقال فلان وقرت أذنه، أى: ثقل سمعها وأصيبت بالصمم

أى: إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الظالمين المعرضين عن الحق، أغطية تمنع قلوبهم

عن وصول النور إليها، وتحجبها عن فقه آياته - سبحانه - وجعلنا - أيضا - فى آذانهم صمماً وثقلاً عن سماع ما ينفعهم وذلك بسبب استحبابهم العمى على الهدى، وإيثارهم الكفر على الإيمان

{وَإِن تَدْعُهُمْ} أيها الرسول الكريم**{إِلَى الهُدَى}** والرشد فلن، يستجيبوا لك، ولن**{يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً}** إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، بسبب زيغ قلوبهم، واستيلاء الكفر والجحود والعناد عليها

والضمير فى قوله:**{أَن يَفْقَهُوهُ}** يعود إلى الآيات، وتذكيره وإفراده باعتبار المعنى، إذ المراد منها القرآن الكريم

{وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً}

أى: وربك - أيها الرسول الكريم - هو صاحب المغفرة الكثيرة، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شىء لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب والمعاصى، لعجل لهم العذاب بسبب ما يرتكبونه من كفر وآثام ولكنه - سبحانه - لم يعجل لهم العذاب رحمة منه وحلما

فالآية الكريمة تبين أن الله - تعالى - بفضله وكرمه لا يعاجل الناس بالعقاب، ولكنه - عز وجل - ليس غافلا عن أعمالهم، بل يؤخرهم إلى الوقت الذى تقتضيه حكمته، لكى يعاقبهم على ما ارتكبوه من ذنوب وآثام

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة، منها قوله - تعالى:**{وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ الله كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً}**

وقوله - تعالى:**{وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب}** ثم بين - سبحانه - سننه فى الأمم الماضية فقال:**{وَتِلْكَ القرى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً}**

تلك " تعود إلى القرى المهلكة بسبب كفرها وفسوقها عن أمر ربها، كقرى قوم نوح وهود وصالح - عليهم السلام

* * * * *

المطلب الثالث:

مجادلة أهل الكتاب

{وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لـه مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ}[1]

{وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}

إن دعوة الله التي حملها نوح عليه السلام والرسل بعده حتى وصلت إلى خاتم النبيين محمد ﷺ لهي دعوة واحدة من عند إله واحد، ذات هدف واحد، هو رد البشرية الضالة إلى ربها، وهدايتها إلى طريقه، وتربيتها بمنهاجه وإن المؤمنين بكل رسالة لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات: كلها أمة واحدة، تعبد إلهاً واحداً وإن البشرية في جميع أجيالها لصنفان اثنان: صنف المؤمنين وهم حزب الله وصنف المشاقين لله وهم حزب الشيطان، بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة في تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون

هذه هي الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التي يقوم عليها الإسلام؛ والتي تقررها هذه الآية من القرآن؛ هذه الحقيقة التي ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب، أو جنس، أو وطن أو تبادل أو تجارة ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله، ممثلة في عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان؛ وتختفي فيها القوميات والأوطان؛ ويتلاشى فيها الزمان والمكان ولا تبقى إلا العروة الوثقى في الخالق الديان

ومن ثم يكشف المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى؛ لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله، الموافقة لما قبلها من الدعوات، المكملة لها

(١) العنكبوت: ٤٦ - ٤٩.

وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر{إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} فانحرفوا عن التوحيد الذي هو قاعدة العقيدة الباقية؛ وأشركوا بالله وأخلوا بمنهجه في الحياة فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت له دولة في المدينة

وإن بعضهم ليفتري على رسول الله ﷺ أنه حاسن أهل الكتاب وهو في مكة مطارد من المشركين فلما أن صارت له قوة في المدينة حاربهم، مخالفاً كل ما قاله فيهم وهو في مكة! وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكي عليه فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على من لم يظلم منهم، ولم ينحرف عن دين الله

وعن التوحيد الخالص الذي جاءت به جميع الرسالات

{وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}

وإذن فلا حاجة إلى الشقاق والنزاع، والجدل والنقاش وكلهم يؤمنون بإله واحد، والمسلمون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى من قبلهم، وهو في صميمه واحد، والمنهج الإلهي متصل الحلقات

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يُؤْمِنُونُ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الكَافِرُونَ}

«كذلك» على النهج الواحد المتصل وعلى السنة الواحدة التي لا تتبدل وعلى الطريقة التي يوحي بها الله لرسله{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ} فوقف الناس بإزائه في صفين: صف يؤمن به من أهل الكتاب ومن قريش، وصف يجحده ويكفر به مع إيمان أهل الكتاب وشهادتهم بصدقه، وتصديقه لما بين أيديهم{وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الكَافِرُونَ} فهذه الآيات من الوضوح والاستقامة بحيث لا ينكرها إلا الذي يغطي روحه عنها ويسترها، فلا يراها ولا يتملاها! والكفر هو التغطية والحجاب في أصل معناه اللغوي، وهو ملحوظ في مثل هذا التعبير

{وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ المُبْطِلُونَ}

وهكذا يتتبع القرآن الكريم مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولي منها فرسول الله ﷺ عاش بينهم فترة طويلة من حياته، لا يقرأ ولا يكتب؛ ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يعجز القارئين الكاتبين ولربما كانت تكون لهم شبهة لو أنه كان من قبل قارئاً كاتباً

فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم؟

ونقول: إنه يتتبع مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولي منها فحتى على فرض أن رسول الله ﷺ كان قارئاً كاتباً، ما جاز لهم أن يرتابوا فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر فهو أكبر جداً من طاقة البشر ومعرفة البشر، وآفاق البشر والحق الذي فيه ذو طبيعة مطلقة كالحق الذي في هذا الكون وكل وقفة أمام نصوصه توحي للقلب بأن وراءه قوة، وبأن في عباراته سلطاناً، لا يصدر عن بشر!

{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ}

فهو دلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم، لا لبس فيها ولا غموض، ولا شبهة فيها ولا ارتياب دلائل يجدونها بينة في صدورهم، تطمئن إليها قلوبهم، فلا تطلب عليها دليلاً وهي الدليل والعلم الذي يستحق هذا الاسم، وهو الذي تجده الصدور في قرارتها، مستقراً فيها، منبعثاً منها؛ يكشف لها الطريق، ويصلها بالخيط الواصل إلى هناك!**{وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ}** الذين لا يعدلون في تقدير الحقائق وتقويم الأمور، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم

لا تجادلوا - أيها المؤمنون - غيركم من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، إلا بالطريقة التى هى أحسن، بأن ترشدوهم إلى طريق الحق بأسلوب لين كريم، كما قال - تعالى - فى آية أخرى:**{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** وقوله:**{إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ}** استثناء من الذين يجادلون بالتى هى أحسن

أى: ناقشوهم وأرشدوهم إلى الحق بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم بأن أساؤوا إليكم، ولم يستعملوا الأدب فى جدالهم، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب

وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية الكريمة، دعوة المؤمنين إلى استعمال الطريقة الحسنى فى مجادلتهم لأهل الكتاب عموماً ما عدا الظالمين منهم فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم وتأديبهم

وقيل: المراد بأهل الكتاب هنا: المؤمنون منهم، والمراد بالذين ظلموا: من بقى على الكفر منهم

فيكون المعنى: ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - من آمن من أهل الكتاب إلا بالتى هى

أحسن، إلا الذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم من التأديب والإغلاظ عليهم

ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر، لأن الآية مسوقة لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقى على دينه من أهل الكتاب، ولأن من ترك كفره منهم ودخل فى الإسلام أصبح مسلما وليس من أهل الكتاب، وما دام الأمر كذلك فليس المسلمون فى حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك:**{وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ}** يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقى على دينه منهم

أى: جادلوهم بالطريقة الحسنى ما داموا لم يظلموكم، وقولوا لهم على سبيل التعليم والإرشاد**{آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا}** وهو القرآن، وآمنا بالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل

قال الشوكانى: أى: آمنا بأنهما منزلان من عند الله، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، والبعثة المحمدية ولا يدخل فى ذلك ما حرفوه وبدلوه

{وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ} لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته**{وَنَحْنُ}** جميعاً معاشر المؤمنين**{لَهُ مُسْلِمُونَ}** أى: مطيعون وعابدون له وحده، ولا نتخذ أربابا من دونه - عز وجل

قال القرطبى ما ملخصه: اختلف العلماء فى قوله - تعالى:**{وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب}** فقال مجاهد: هى محكمة، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن، على معنى الدعاء لهم إلى الله - عز وجل - والتنبيه على حججه وآياته وقوله:**{إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ}** أى ظلموكم

وقيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال وهى قوله:

{قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله} وقول مجاهد: حسن، لأن أحكام الله - عز وجل - لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخير يقطع العذر، أو حجة من معقول

ثم بين - سبحانه - موقف الناس من هذا الكتاب الذى أنزله على نبيه ﷺ فقال:**{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب فالذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يُؤْمِنُونَ بِهِ}**

والكاف بمعنى مثل واسم الإشارة يعود إلى المصدر المفهوم من أنزلنا أى: ومثل ذلك الإنزال المعجز البديع، أنزلنا إليك الكتاب - أيها الرسول الكريم - ليكون هداية للناس، فالذين آتيناهم الكتاب الشامل للتوراة والإنجيل وعقلوه وفتحوا قلوبهم للحق، يؤمنون بهذا الكتاب الذى نزل عليك، وهو القرآن

فالمراد بالذين أوتوا الكتاب: المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأمثاله والمراد

بالكتاب جنسه والضمير فى " به " يعود إلى القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله محمد ﷺ وخص هؤلاء المؤمنين منهم بإيتاء الكتاب، على سبيل المدح لهم لأنهم انتفعوا بما أوتوه من علم وعملوا بمقتضاه، أما غيرهم من بقى على كفره، فلكونه لم ينتفع بما فى الكتاب من هدايات، فكأنه لم يره أصلاً

وقوله:**{وَمِنْ هؤلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ}**: ومن هؤلاء العرب الذين أرسلت إليهم - أيها الرسول الكريم - من يؤمن بهذا القرآن الذى أنزلناه إليك

و " من " للتبعيض، لأنهم لم يؤمنوا جميعاً، وإنما منهم من هداه الله - تعالى - إلى الصراط المستقيم

{وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ} الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، وعلى صدقك فيما تبلغه عنا،**{إِلاَّ الكَافِرُونَ}** أى: إلا الموغلون فى الكفر، المصرون عليه إصراراً تاماً

والجحود: إنكار الحق مع معرفة أنه حق

وعبر عن الكتاب بالآيات، للإشعار بأنها فى غاية الظهور والدلالة على كونها من عند الله - تعالى - وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمد وإصرار

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن من الناس من قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان، ومنهم من قابله بالجحود والنكران

ثم ساق - سبحانه - أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده - تعالى -، فقال:**{وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ المبطلون}**

أى: أنت - أيها الرسول الكريم - ما كنت فى يوم من الأيام قبل أن ننزل عليك هذا القرآن - تالياً لكتاب من الكتب، ولا عارفاً للكتابة، ولو كنت ممن يعرف القراءة والكتابة، لارتاب المبطلون فى شأنك، ولقالوا إنك نقلت هذا القرآن بخطك من كتب السابقين

و**{مِن}** فى قوله:**{مِن كِتَابٍ}** لتأكيد نفى كونه ﷺ قارئاً لأى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه

وقوله:**{وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ}** لتأكيد نفى كونه ﷺ يعرف الكتاب أو الخط

قال الإمام ابن كثير: وهكذا صفته ﷺ فى الكتب المتقدمة، كما قال - تعالى:**{الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة**

والإنجيل} وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه - إلى يوم القيامة، لا يحسن الكتابة، ولا يخط سطرا ولا حرفاً بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم

والمراد بالمبطلين: كل من شك فى كون هذا القرآن من عند الله - تعالى - سواء أكان من مشركى مكة أم من غيرهم

وسماهم - سبحانه - مبطلين، لأن ارتيابهم ظاهر بطلانه ومجانبته للحق، لأن الرسول ﷺ قد لبث فيهم قبل النبوة أربعين سنة، يعرفون حسبه ونسبه، ويعلمون حق العلم أنه أمى لا يعرف الكتابة والقراءة

ثم بين - سبحانه - حقيقة هذا الكتاب المعجز فقال:**{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم}**

أى: هذا الكتاب ليس أساطير الأولين اكتتبها الرسول ﷺ كما زعم المبطلون - بل هو آيات بينات واضحات راسخات، فى صدور المؤمنين به، الذين حفظوه وتدبروه وعملوا بتوجيهاته وإرشاداته، وعملوا بما فيه من حكم وأحكام وعقائد وآداب

ووصف الله - تعالى - المؤمنين بهذا القرآن بالعلم على سبيل المدح لهم، والإعلاء من شأنهم حيث استطاعوا عن طريق ما وهبهم - سبحانه - من علم نافع، أن يوقنوا بأن هذا من عند الله، ولو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً

وقوله - سبحانه:**{وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ الظالمون}** تذييل المقصود به ذم الذين تجاوزا كل حق وصدق فى أحكامهم وتصرفاتهم

ألا: وما يجحد آياتنا مع وضوحها وسطوعها، وينكر كونها من عند الله - تعالى - إلا الظالمون المتجاوزون لكل ما هو حق، ولكل ما هو صدق

ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك طرفاً من أقوال المشركين الفاسدة وأمرت الرسول ﷺ أن يرد عليهم بما يزهق باطلهم، كما قصت علينا لونا من ألوان جهالاتهم، حيث استعجلوا الذى لا يستعجله عاقل فقال - تعالى:**{وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}**

ومرادهم بالآيات فى قوله - تعالى:{وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ} الآيات الكونية، كعصا موسى، وناقة صالح ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا

أى: وقال المبطلون للنبى ﷺ على سبيل التعنت والعناد، هلا جئتنا يا محمد بمعجزات حسية كالتى جاء بها بعض الأنبياء من قبلك، لكى نؤمن بك ونتبعك؟

وقوله:{قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} إرشاد من الله - تعالى - لنبيه ﷺ إلى ما يرد به عليهم

أى: قل - أيها الرسول - الكريم - فى ردك على هؤلاء الجاهلين، إنما الآيات التى تريدونها عند الله - تعالى - وحده، ينزلها حسب إرادته وحكمته، أما أنا فإن وظيفتى الإنذار الواضح بسوء مصير من أعرض عن دعوتى، وليس من وظيفتى أن أقترح على الله - تعالى شيئاً

وقوله - سبحانه:{أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ} كلام مستأنف من جهته - تعالى - لتوبيخهم على جهالاتهم، والاستفهام للإنكار، والواو للعطف على مقدر

والمعنى: أقالوا ما قالوا من باطل وجهل، ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب الناطق بالحق، يتلى على مسامعهم صباح ومساء، ويهديهم إلى ما فيه سعادتهم، لو تدبروه وآمنوا به، واتبعوا أوامره ونواهيه؟

والتعبير بقوله - سبحانه:{يتلى عَلَيْهِمْ}، يشير إلى أن هذه التلاوة متجددة عليهم، وغير منقطعة عنهم، وكان فى إمكانهم أن ينتفعوا بها لو كانوا يعقلون

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله:{إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}

أى: إن فى ذلك الكتاب الذى أنزلناه عليك - أيها الرسول الكريم -، والذى تتلوه عليهم صباح مساء، لرحمةٍ عظيمةٍ، وذكرى نافعةٍ، لقوم يؤمنون بالحق، ويفتحون عقولهم للرشد، لا للتعنت والجحود والعناد

ثم أرشده - سبحانه - إلى جواب آخر يرد به عليهم فقال:{قُلْ كفى بالله بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً} اى: قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين: يكفينى كفاية تامة أن يكون الله - تعالى - وحده، هو الشهيد بينى وبينكم على أنى صادق فيما أبلغه عنه، وعلى أن هذا القرآن من عنده

وهو - سبحانه:{يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض} علماً لا يعزب عنه شيء، وسيجازينى بما أستحقه من ثواب، وسيجازيكم بما يستحقونه من عقاب

{والذين آمَنُواْ بالباطل} وأعرضوا عن الحق{وَكَفَرُواْ بالله} - تعالى - مع وضوح الأدلة على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة والطاعة

الذين فعلوا ذلك:{أولئك هُمُ الخاسرون} خسارة ليس بعدها خسارة، حيث آثروا الغى على الرشد، واستحبوا العمى على الهدى، وسيكون أمرهم فرطاً فى الدنيا والآخرة

وقوله - عز وجل:{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب} بيان للون آخر من ألوان انطماس بصيرة هؤلاء الكافرين، ومن سفاهاتهم وجهالاتهم أى: أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بتكذيبك - أيها الرسول الكريم - بل أضافوا إلى ذلك، التطاول عليك، لسوء أدبهم، وعدم فهمهم لوظيفتك بدليل أنهم يطلبون منك أن تنزل عليهم العذاب بعجلة وبدون إبطاء، على سبيل التحدى لك كما قالوا فى موطن آخر:{اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} ثم يبين الله - تعالى - حكمته فى تأخير عذابه عنهم إلى حين فيقول:{وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب} أى: يستعجلك المشركون يا محمد فى نزول العذاب بهم، والحق أنه لولا أجل مسمى، ووقت معين، حدده الله - تعالى - فى علمه لنزول العذاب بهم، لجاءهم العذاب فى الوقت الذى طلبوه، بدون إبطاء أو تأخير

ومع ذلك فقل لهم - أيها الرسول الكريم - إن هذا العذاب آت لا ريب فيه فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى -، وإن هذا العذاب المدمر المهلك:{لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} أى: ليحلن عليهم فجأة وبدون مقدمات، والحال أنهم لا يشعرون به، بل يأتيهم بغتة فيبهتهم، ويستأصل شأفتهم

ثم كرر - سبحانه - أقوالهم على سبيل التعجيب من حالهم، والتسلية للرسول ﷺ عما لقيه منهم فقال:{يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين}

أى: يستعجلونك - أيها الرسول الكريم - بالعذاب، الذى لا يطلبه أحد فى ذهنه مثقال ذرة من عقل، والحال أن ما استعجلوه سينزل بهم لا محالة، وستحيط بهم جهنم من كل جانب

ثم بين - سبحانه - كيفية إحاطة جهنم بهم فقال:**{يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب}**

أى: ستحيط بهم جهنم من كل جانب يوم يحل بهم العذاب**{مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ}** أى: من جميع جهاتهم

{وَيِقُولُ} - سبحانه - لهم، على سبيل التقريع والتأنيب**{ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** أى: تذوقوا العذاب المهين الذى كنتم تستعجلونه فى الدنيا والذى أحاط بكم من كل جانب بسبب أعمالكم القبيحة، وأقوالكم الباطلة

وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة المكذبين، الذين استعجلوا العذاب لجهلهم وعنادهم، أتبع ذلك بتوجيه نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بالثبات على الحق، فقال - تعالى:**{الذين عَاهَدْتَّ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}**[1]

* * * * *

(١) سيد طنطاوي ٤٠٢.

المطلب الرابع:

النبى محمد ﷺ المثل الأعلى فى الأخلاق

{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}(١)

{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}

فيثبت في هذه الآية القصيرة وينفي يثبت نعمة الله على نبيه، في تعبير يوحي بالقربى والمودة: حين يضيفه سبحانه إلى ذاته:**{رَبِّكَ}** وينفي تلك الصفة المفتراة التي لا تجتمع مع نعمة الله، على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه

وإن العجب ليأخذ كل دارس لسيرة الرسول ﷺ في قومه، من قولتهم هذه عنه، وهم الذين علموا منه رجاحة العقل حتى حكموه بينهم في رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام كثيرة

وهم الذين لقبوه بالأمين، وظلوا يستودعونه أماناتهم حتى يوم هجرته، بعد عدائهم العنيف له، فقد ثبت أن عليا كرم الله وجهه تخلف عن رسول الله أياماً في مكة، ليرد إليهم ودائعهم التي كانت عنده؛ حتى وهم يحادونه ويعادونه ذلك العداء العنيف وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة فلما سأل هرقل أبا سفيان عنه: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوته؟ قال أبو سفيان وهو عدوه قبل إسلامه: لا، فقال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله!

إن الإنسان ليأخذه العجب أن يبلغ الغيظ بالناس إلى الحد الذي يدفع مشركي قريش إلى أن يقولوا هذه القولة وغيرها عن هذا الإنسان الرفيع الكريم، المشهور بينهم برجاحة العقل وبالخلق القويم ولكن الحقد يعمي ويصم، والغرض يقذف بالفرية دون تحرج! وقائلها يعرف قبل كل أحد، أنه كذاب أثيم!

{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} هكذا في عطف وفي إيناس وفي تكريم، رداً على ذلك الحقد الكافر، وهذا الافتراء الذميم

{وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ}

(١) القلم: ٢ - ٤.

وإن لك لأجراً دائماً موصولاً، لا ينقطع ولا ينتهي، أجراً عند ربك الذي أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم وهو إيناس كذلك وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون وماذا فقد من يقول لـه ربـه:**{وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ}** في عطف وفي مودة وفي تكريم

ثم تجيء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم:**{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**

وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم؛ ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود! ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول لـه فيها:**{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}** ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين!

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواح شتى:

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله

وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقيها وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة ما هو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟ ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين

إن إطاقة محمد ﷺ لتلقي هذه الكلمة، من هذا المصدر، وهو ثابت، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل ولو أنها ثناء ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن وهو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روي عنه ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شيء آخر أعظم بصدورها عن العلي الكبير وأعظم بتلقي محمد لها وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقائه بعدها ثابتاً راسخاً مطمئناً لا يتكبر على العباد، ولا ينتفخ، ولا يتعاظم، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير!

والله أعلم حيث يجعل رسالته وما كان إلا محمد ﷺ بعظمة نفسه هذه من يحمل هذه

الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى فيكون كفئاً لها، كما يكون صورة حية منها

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال، والعظمة والشمول، والصدق والحق، بحيث لا يحملها إلا الرجل الذي يثني عليه الله هذا الثناء فتطيق شخصيته كذلك تلقي هذا الثناء في تماسك وفي توازن، وفي طمأنينة طمأنينة القلب الكبير الذي يسع حقيقة تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم ثم يتلقى بعد ذلك عتاب ربه له ومؤاخذته إياه على بعض تصرفاته، بذات التماسك وذات التوازن وذات الطمأنينة ويعلن هذه كما يعلن تلك، لا يكتم من هذه شيئاً ولا تلك وهو هو في كلتا الحالتين النبي الكريم والعبد الطائع والمبلغ الأمين

إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة وإن عظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة وإن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإسلامية لأبعد من مدى أي مجهر يملكه بشر وقصارى ما يملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة المزدوجة أن يراها ولا يحدد مداها وأن يشير إلى مسارها الكوني دون أن يحدد هذا المسار!

ومرة أخرى أجد نفسي مشدوداً للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقي رسول الله ﷺ لهذه الكلمة من ربه، وهو ثابت راسخ متوازن مطمئن الكيان لقد كان وهو بشر يثني على أحد أصحابه، فيهتز كيان صاحبه هذا وأصحابه من وقع هذا الثناء العظيم وهو بشر وصاحبه يعلم أنه بشر وأصحابه يدركون أنه بشر إنه نبي نعم ولكن في الدائرة المعلومة الحدود دائرة البشرية ذات الحدود فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله وهو يعلم من هو الله هو بخاصة يعلم من هو الله! هو يعلم منه ما لا يعلمه سواه

ثم يصطبر ويتماسك ويتلقى ويسير إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير!!!

إنه محمد وحده هو الذي يرقى إلى هذا الأفق من العظمة إنه محمد وحده هو الذي يبلغ قمة الكمال الإنساني المجانس لنفخة الله في الكيان الإنساني إنه محمد وحده هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية؛ حتى لتتمثل في شخصه حية، تمشي على الأرض في إهاب إنسان

إنه محمد وحده الذي علم الله منه أنه أهل لهذا المقام والله أعلم حيث يجعل رسالته وأعلن في هذه أنه على خلق عظيم وأعلن في الأخرى أنه جل شأنه وتقدست ذاته وصفاته، يصلي عليه هو وملائكته **{إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ}** وهو جل شأنه

وحده القادر على أن يهب عبداً من عباده ذلك الفضل العظيم

ثم إن لهذه اللفتة دلالتها على تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله؛ وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية

والناظر في هذه العقيدة، كالناظر في سيرة رسولها، يجد العنصر الأخلاقي بارزاً أصيلاً فيها، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد، ومطابقة القول للفعل، ومطابقتهما معاً للنية والضمير؛ والنهي عن الجور والظلم والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل، والاعتداء على الحرمات والأعراض، وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور

والتشريعات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك، وفي أعماق الضمير وفي واقع المجتمع وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء

والرسول الكريم يقول: **«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»** [1] فيلخص رسالته في هذا الهدف النبيل وتتوارد أحاديثه تترى في الحض على كل خلق كريم وتقوم سيرته الشخصية مثالاً حياً وصفحة نقية، وصورة رفيعة، تستحق من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد:**{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}** فيمجد بهذا الثناء نبيه ﷺ كما يمجد به العنصر الأخلاقي في منهجه الذي جاء به هذا النبي الكريم، ويشد به الأرض إلى السماء، ويعلق به قلوب الراغبين إليه سبحانه وهو يدلهم على ما يحب ويرضى من الخلق القويم

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذ في أخلاقية الإسلام فهي أخلاقية لم تنبع من البيئة، ولا من اعتبارات أرضية إطلاقاً؛ وهي لا تستمد ولا تعتمد على اعتبار من اعتبارات العرف أو المصلحة أو الارتباطات التي كانت قائمة في الجيل إنما تستمد من السماء وتعتمد على السماء تستمد من هتاف السماء للأرض لكي تتطلع إلى الأفق وتستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر في حدود الطاقة، كي يحققوا إنسانيتهم العليا، وكي يصبحوا أهلاً لتكريم الله لهم واستخلافهم في الأرض؛ وكي يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى:

{فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} ومن ثم فهي غير مقيدة ولا محدودة بحدود من أي

(١) مسند أحمد/ ٨٥٩٥.

اعتبارات قائمة في الأرض؛ إنما هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يطيقه البشر، لأنها تتطلع إلى تحقيق صفات الله الطليقة من كل حد ومن كل قيد

ثم إنها ليست فضائل مفردة صدق وأمانة، وعدل، ورحمة وبر إنما هي منهج متكامل، تتعاون فيه التربية التهذيبية مع الشرائع التنظيمية؛ وتقوم عليه فكرة الحياة كلها واتجاهاتها جميعاً، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله لا إلى أي اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة!

وقد تمثلت هذه الأخلاقية الإسلامية بكمالها وجمالها وتوازنها واستقامتها واطرادها وثباتها في محمد ﷺ وتمثلت في ثناء الله العظيم، وقوله:**{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**

* * * * *

المطلب الخامس:

الفصل فى شأن المشركين وأهل الكتاب

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}(١)

"مِنْ " فى قوله - تعالى:**{مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ}** للبيان، وقوله - سبحانه:**{مُنفَكِّينَ}**: للعلماء فى معنى هذا اللفظ أقوال متعددة، منها: أنه اسم فاعل من انفك بمعنى انفصل، يقال: فككت الشئ فانفك إذا افترق ما كان ملتحما منه

والبينة: الحجة الظاهرة التى يتميز بها الحق من الباطل، وأصلها من البيان بمعنى الظهور والوضوح، لأن بها تتضح الأمور، أو من البينونة بمعنى الانفصال، لأن بها ينفصل الحق عن الباطل بعد التباسهما

والمراد بها هنا: رسول الله ﷺ، لقوله - تعالى - بعد ذلك:**{رَسُولٌ مِّنَ الله يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً}**، ولأنه ﷺ كان فى ذاته برهانا على صحة ما ادعاه من النبوة، لتحليه بكمال العقل وبمكارم الأخلاق، ولإتيانه بالمعجزات التى تؤيد أنه صادق فيما يبلغه عن ربه

(١) البينة: ١ - ٦.

والمعنى: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ولم يكن - أيضاً - الذين كذبوا الحق من المشركين، ولم يكن الجميع بمفارقين وبمنفصلين عن كفرهم وشركهم،**{حتى تَأْتِيَهُمُ البينة}** التى هى الرسول ﷺ فلما أتتهم هذه البينة، منهم من آمن ومنهم من استمر على كفره وشركه وضلاله

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: " كان الكفار من الفريقين، أهل الكتاب، وعبدة الأصنام، يقولون قبل مبعث النبى ﷺ: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يبعث النبى المكتوب فى التوراة والإنجيل، وهو محمد ﷺ، فحكى الله - تعالى - ما كانوا يقولونه

ثم قال:**{وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب}**، يعنى أنهم كانوا يَعِدُون باجتماع الكلمة، والاتفاق على الحق، إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق، ولا أقرهم على الكفر، إلا مجىء الرسول ﷺ، ونظيره فى الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست بمنفك عما أنا فيه حتى يرزقنى الله - تعالى - الغنى، فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقا، فيقول له واعظة: لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر، وما غمست رأسك فى الفسق إلا بعد اليسار، يذكره ما كان يقوله توبيخا وإلزاما

وانفكاك الشىء من الشىء، أن يزايله بعد التحامه به كالعظم إذا انفك من مفصله

والمعنى: أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجئ البينة

ومنهم من يرى: أن**{مُنفَكِّينَ}** بمعنى متروكين لا بمعنى تاركين، أى: لم يكونوا جميعاً متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك، حتى تأتيهم البينة، على معنى قوله - تعالى:**{أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى}** أو المعنى: لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله - تعالى - وقدرته ونظره لهم، حتى يبعث الله - تعالى - إليهم رسولا منذرا، تقوم عليهم به الحجة، ويتم على من آمن النعمة، فكأنه - تعالى - قال: ما كانوا ليتركوا سدى

وهناك أقوال أخرى فى معنى الآية رأينا أن نضرب عنها صفحاً لضعفها

وقد قدم الله - تعالى - ذكر أهل الكتاب فى البيان، لأن كفرهم أشنع وأقبح إذ كانوا يقرؤون الكتب، ويعرفون أوصاف النبى ﷺ فكانت قدرتهم على معرفة صدقه أكبر وأتم

وفى التعبير عنهم بأهل الكتاب دون اليهود والنصارى، تسجيل للغفلة وسوء النية عليهم حيث علموا الكتاب

وعرفوا عن طريقه أن هناك رسولا كريما قد أرسله الله - تعالى - لهدايتهم، ومع ذلك كفروا به، كما قال - تعالى:**{فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين}** وقوله - سبحانه:**{رَسُولٌ مِّنَ الله يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً}** بدل من " البيِّنَةِ " على سبيل المبالغة، حيث جعل - سبحانه - الرسول نفس البينة

أى: لم يفارقوا دينهم حتى جاءهم رسول كريم، كائن من عند الله - تعالى - لكى يقرأ على مسامعهم صحفا من القرآن الكريم، مطهرة، أى: منزهة عن الشرك والكفر والباطل، وهذه الصحف من صفاتها - أيضا - أنها**{فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}** أى: فيها سور آيات قرآنية مستقيمة لا عوج فيها، بل هى ناطقة بالحق والخير والصدق والهداية، وبأخبار الأنبياء السابقين وبأحوالهم مع أقوامهم

فقوله:**{قَيِّمَةٌ}** بمعنى مستقيمة لا عوج فيها ولا اضطراب، من قولهم: قام فلان يقوم، إذا استوى على قدميه فى استقامة

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه أهل الكتاب من جحودهم للحق، ومن إنكارهم له مع علمهم به، فقال - تعالى:**{وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة}** أى: أن الجاحدين والمعاندين والحاسدين لك - أيها الرسول الكريم - من أهل الكتاب، ما تفرقوا فى أمره، وما اختلفوا فى شأن نبوتك إلا من بعد أن جئتهم أنت بما يدل على صدقك، دلالة لا يجحدها إلا جهول، ولا ينكرها إلا حسود، ولا يعرض عنها إلا من طغى وآثر الحياة الدنيا

فالآية الكريمة كلام مستأنف، المقصود به تسليته ﷺ عما أصابه من هؤلاء الجاحدين فكأنه - سبحانه - يقول له: لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لإعراض من أعرض عن دعوتك من أهل الكتاب، فإن إعراضهم لم يكن عن جهل، وإنما عن عناد وجحود وحسد لك على ما آتاك الله من فضله

وإنما خص - سبحانه - هنا أهل الكتاب بالذكر، مع أن الكلام فى أول السورة كان فيهم وفى المشركين، للدلالة على شناعة حالهم، وقبح فعالهم، لأن الإعراض عن الحق

ممن لـه كتاب، أشد قبحا ونكرا، ممن ليس لـه كتاب وهم المشركون

والاستثناء فى الآية مفرغ، والمستثنى منه عموم الأوقات والمعنى: لم يتفرق الجاحدون من الذين أوتوا الكتاب فى وقت من الأوقات، إلا فى الوقت الكائن بعد مجئ البينة لهم

ومن الآيات القرآنية الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قولـه - تعالى:**{وَمَا تفرقوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ}** ثم بين - سبحانه - ما كان يجب عليهم أن يفعلوه، فقال:**{وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ له الدين حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصلاة وَيُؤْتُواْ الزكاة وَذَلِكَ دِينُ القيمة}**

والواو فى قولـه - تعالى:**{وَمَآ أمروا}** للحال، فهذه الجملة حالية، والمقصود منها بيان أن هؤلاء الضالين، قد بلغوا النهاية فى قبح الأفعال، وفى فساد العقول، إذ أنهم تفرقوا واختلفوا وأعرضوا عن الهدى، فى حال أنهم لم يؤمروا إلا بما فيه صلاحهم

وقولـه:**{حنفاء}** من الحَنف، وهو الميل من الدين الباطل إلى الدين الحق كما أن الجنف هو الميل من الحق إلى الباطل

أى: أن هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا فى شأن الحق، والحال، أنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله - تعالى - وحده، مخلصين لـه الطاعة، ومائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، مؤمنين بجميع الرسل بدون تفرقة بينهم، إذ ملتهم جميعا واحدة، ولم يؤمروا - أيضا - إلا بإقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين، وبإيتاء الزكاة التى تطهرهم وتزكيهم

{وذلك} الذى أمرناهم به من إخلاص العبادة لنا، ومن أداء فرائضنا**{دِينُ القَيِّمَةِ}** أى: دين الملة المستقيمة القيمة، أو دين الكتب القيمة

ولفظ: " القيمة " بزنة فيعلة - من القوامة، وهى غاية الاستقامة، وهذا اللفظ صفة لموصوف محذوف

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الجاحدين من أهل الكتاب ومن المشركين فقال:**{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا}**

أى: إن الذين أصروا على كفرهم بعد أن تبين لهم، من اليهود والنصارى، ومن المشركين الذين هم عبدة الأصنام مكانهم المهيأ لهم هو نار جهنم، حالة كونهم خالدين

فيها خلودا أبديا**{أُوْلَئِكَ}** الموصوفون بتلك الصفات الذميمة**{هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ}** أى: هم شر كل صنف من أصناف المخلوقات، لإصرارهم على الكفر والإشراك مع علمهم بالحق

ولفظ: " البرية " من البرَى وهو التراب، لأنهم قد خلقوا فى الأصل منه، يقال: فلان برَاه الله - تعالى - يبرُوه بَرْواً أى: خلقه وقرأ نافع بالهمز، من قولهم برأ الله - تعالى - الخلق يبرؤهم، أى: خلقهم

وقدم سبحانه - أهل الكتاب فى المذمة، لأن جنايتهم فى حق الرسول ﷺ أشد، إذا كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون لهم: إن نبيا قد أظللنا زمانه، وإننا عند مبعثه سنتبعه فلما بعث ﷺ كفروا به

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

الأول: أن هؤلاء الضالين خالدون فى النار

والثانى: أنهم شر المخلوقات التى خلقها الله - تعالى

الحقيقة الأولى: هي أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة:

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}

والحقيقة الثانية: أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة:**{وَمَا تَفَرَّقَ الَذينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ}**

والحقيقة الثالثة: أن الدين في أصله واحد، وقواعده بسيطة واضحة، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة:**{وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ}**

والحقيقة لقد كانت الأرض في حاجة ماسة إلى رسالة جديدة كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة، ومنهج جديد، وحركة جديدة وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعاً سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات

السماوية من قبل ثم حرفوها، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء

الرابعة: أن الذين وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة:**{رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً}** مطهرة من الشرك والكفر**{فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}** والكتاب يطلق على الموضوع، كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة، وكتاب القدر، وكتاب القيامة، وهذه الصحف المطهرة وهي هذا القرآن فيها كتب قيمة أي موضوعات وحقائق قيمة

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها، وجاء هذا الرسول في وقته، وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث في الأرض كلها حدثاً لا تصلح الأرض إلا به فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة وإلى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم كتبه الرجل المسلم «السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي» بعنوان: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وهو أوضح وأخصر ما قرأناه في موضوعه:

جاء في الفصل الأول من الباب الأول:

كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدها، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب، فضلاً عن البيوت، فضلاً عن البلاد

وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فراراً بدينهم من الفتن، وضناً بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون، فراراً من تكاليف الحياة وجدها، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة، والروح والمادة؛ ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل

«أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين؛ ولعبة المجرمين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها؛ وأصبحت مهود

الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام، وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالة، ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنوياتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوي، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري»

هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حالة البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية وقد أشار القرآن إلى مظاهر الكفر الذي شمل أهل الكتاب والمشركين في مواضع شتى

كفروا بعد ما جا من ذلك قولـه عن اليهود والنصارى:**{وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} {وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلَى شَيءٍ}**

وقولـه عن اليهود:**{وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}** وقولـه عن النصارى:

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ} وقولـه عن المشركين:**{قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** وغيرهما كثير

وكان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض «وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء»

ومن ثم اقتضت رحمة الله بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة وما كان الذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين

ولما قرر هذه الحقيقة في مطلع السورة عاد يقرر أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ما جاءتهم البينة من دينهم على أيدي رسلهم:**{وَمَا تَفَرَّقَ الَذينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ}**

وكان أول التفرق والاختلاف ما وقع بين طوائف اليهود قبل بعثة عيسى عليه

السلام فقد انقسموا شعباً وأحزاباً مع أن رسولهم هو موسى عليه السلام وكتابهم هو التوراة فكانوا طوائف خمسة رئيسية هي طوائف الصدوقيين، والفريسيين، والآسيين، والغلاة، والسامريين ولكل طائفة سمة واتجاه ثم كان التفرق بين اليهود والنصارى، مع أن المسيح عليه السلام هو أحد أنبياء بني إسرائيل وآخرهم، وقد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ومع هذا فقد بلغ الخلاف والشقاق بين اليهود والمسيحيين حد العداء العنيف والحقد الذميم وحفظ التاريخ من المجازر بين الفريقين ما تقشعر له الأبدان

«وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم (أي اليهود) إلى المسيحيين وبغض المسيحيين إليهم، وشوه سمعتهم ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية، فأرسل الإمبراطور قائده» أبنوسوس «ليقضي على ثورتهم، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة، فقتل الناس جميعاً قتلاً بالسيف، وشنقاً، وإغراقاً، وإحراقاً، وتعذيباً، ورمياً للوحوش الكاسرة

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة، قال المقريزي في كتاب الخطط:

«وفي أيام (فوقا) ملك الروم، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس، وفلسطين وعامة بلاد الشام، وقتلوا النصارى بأجمعهم، وأتوا إلى مصر في طلبهم، وقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر

وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم؛ وأقبلوا نحو الفرس من طبرية، وجبل الجليل، وقرية الناصرة ومدينة صور، وبلاد القدس؛ فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم، وخربوا لهم كنيستين بالقدس، وأحرقوا أماكنهم، وأخذوا قطعة من عود الصليب، وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه إلى أن قال بعد أن ذكر فتح القدس: فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور، وأرسلوا بقيتهم في بلادهم، وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم، فكانت بينهم حرب، اجتمع فيها من اليهود نحو ٢٠ ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صور

فقوّس النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود هزيمة قبيحة، وقتل منهم كثير وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنه، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر، ويجدد ما خربه الفرس،

فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها، وقدموا لـه الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم منه ويحلف لهم على ذلك، فأمنهم وحلف لهم ثم دخل القدس

وقد تلقاهم النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة، فوجد المدينة وكنائسها خراباً، فساءه ذلك، وتوجع لهم، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس، وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس، وقاموا قياماً كبيراً في قتلهم عن آخرهم،

وحثوا هرقل على الوقيعة بهم، وحسنوا لـه ذلك فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه، فأفتاه رهبانهم وبطارقتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على مر الزمان والدهور! فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق في مماليك الروم والشام إلا من فر واختفى

«وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان: اليهود والنصارى، من القسوة والضراوة بالدم الإنساني، وتحين الفرص للنكاية في العدو، وعدم مراعاة الحدود في ذلك»

ثم كان التفرق والاختلاف بين النصارى أنفسهم، مع أن كتابهم واحد ونبيهم واحد تفرقوا واختلفوا أولاً في العقيدة ثم تفرقوا واختلفوا طوائف متعادية متنافرة متقابلة وقد دارت الخلافات حول طبيعة المسيح عليه السلام وعما إذا كانت لاهوتية أو ناسوتية

وطبيعة أمه مريم وطبيعة الثالوث الذي يتألف منه «الله» في زعمهم وحكى القرآن قولين منها أو ثلاثة في قولـه:**{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ}**

{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ} «وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية، وبين نصارى مصر أو بين» الملكانية المنوفوسية «بلفظ أصح فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح، وكان المنوفوسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي الإلاهية التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار لـه وقد اشتد هذا

الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى كل طائفة تقول للأخرى: إنها ليست على شيء

وحاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) بعد انتصاره على الفرس (سنة ٦٣٨) جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها، وأراد التوفيق، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد وفي صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك، وصار المذهب المنوثيلي مذهباً رسمياً للدولة، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية

وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة، متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل ولكن القبط نابذوه العداء، وتبرؤوا من هذه البدعة والتحريف! وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة وأما المسألة الأخرى وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيه، ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراته وجعل ذلك رسالة رسمية، ذهب بها إلى جميع جهات العالم الشرقي ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر، ووقع اضطهاد فظيع على يد قيصر في مصر استمر عشر سنين، ووقع في خلالها ما تقشعر منه الجلود، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون غرقاً، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ويوضع السجين في كيس مملوء بالرمل ويرمى في البحر إلى غير ذلك من الفظائع

وكان هذا الخلاف كله بين أهل الكتاب جميعاً **{مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ}** فلم يكن ينقصهم العلم والبيان؛ إنما كان يجرفهم الهوى والانحراف

على أن الدين في أصله واضح والعقيدة في ذاتها بسيطة:

{وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق:

عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، والميل عن الشرك وأهله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة: **{وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}**

عقيدة خالصة في الضمير، وعبادة لله، تترجم عن هذه العقيدة، وإنفاق للمال في

سبيل الله، وهو الزكاة فمن حقق هذه القواعد، فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب، وكما هو في دين الله على الإطلاق دين واحد وعقيدة واحدة، تتوالى بها الرسالات، ويتوافى عليها الرسل دين لا غموض فيه ولا تعقيد

وعقيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف، وهي بهذه النصاعة، وبهذه البساطة، وبهذا التيسير فأين هذا من تلك التصورات المعقدة، وذلك الجدل الكثير؟

فأما وقد جاءتهم البينة من قبل في دياناتهم على أيدي رسلهم؛ ثم جاءتهم البينة، حية في صورة رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة؛ ويقدم لهم عقيدة واضحة بسيطة ميسرة، فقد تبين الطريق ووضح مصير الذين يكفرون والذين يؤمنون:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ}

{جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}

إن محمداً ﷺ هو الرسول الأخير؛ وإن الإسلام الذي جاء به هو الرسالة الأخيرة وقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض لترد الناس إلى الصلاح وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلة بعد مهلة، لمن ينحرفون عن الطريق فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة، فقد تحددت الفرصة الأخيرة، فإما إيمان فنجاة، وإما كفر فهلاك ذلك أن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له، وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمده

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ} حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان، بهذه الرسالة الأخيرة، وبهذا الرسول الأخير لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح، المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم [1]

* * * * *

(١) الظلال: ٥٩٨.